

الفصل السابع: عظة الجبل، العناية الإلهية

١- الاستقبال



في عظة يسوع الأولى على الجبل (متى ٥ - ٧) تعاليم مختلفة حول علاقة العهد القديم بالجديد، نوعية الصلاة والطلب، البابين الضيق والواسع، والطريقين في الحياة، وحول أهمية الثمر الطيب للشجر. لا يمكننا أن نقرأ كل هذه التعاليم في اجتماعتنا، لكن من الواجب أن يقرأها كل تلميذ للملكوت ويُطبّقها في حياته.

يحدثنا موضوع اليوم عن الله الأب، الأبنوس الأول من الثالوث الأقدس. لقد عرفنا أن الروح القدس هو مبدأ الولادة الجديدة في إنجيل

نيقوديموس، وكثيراً ما نتحدث عن يسوع وعن حياته، أما الأب فنادرًا ما نذكر على أهمية حضوره. هل صحيح أن الله هو «أبونا» ويعتني بنا، أم إنه إله متعال لا يمكن أن يكون أبانا وأن نكون أبناءه من ذات الهويّة والروحانيّة؟ ما علاقة الله الأب بمخلوقاته؟ هذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه في اجتماعنا اليوم.

٢- قراءة الإنجيل وتفسيره:

عظة الجبل، العناية الإلهية (متى ٦: ٢٥-٣٤)

٢٥ لذلك أقول لكم: لا يهتمكم للعيش ما تأكلون ولا للجسد ما تلبسون. أليست الحياة أعظم من الطعام، والجسد أعظم من اللباس؟^{٢٦} انظروا إلى طيور السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تحزن في الأهراء، وأبوكم السماوي يرزقها. أفلمستم أنتم أئمن منها كثيرًا؟^{٢٧} ومن منكم، إذا اهتم، يستطيع أن يضيف إلى حياته مقدار ذراع واحدة؟^{٢٨} ولماذا يهتمكم اللباس؟ اعتبروا بزنا بق الحقل كيف تنمو، فلا تجهد ولا تغزل.^{٢٩} أقول لكم إن سليمان نفسه في كل مجده لم يلبس مثل واحدة منها.^{٣٠} فإذا كان عشب الحقل، وهو يوجد اليوم ويترح غدًا في التنور، يلبسه الله هكذا، فما أحرصه بأن يلبسكم، يا قليلي الإيمان!^{٣١}

فلا تَهْتَمُّوا فَتَقُولُوا: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟^{٣٢} فِهَذَا كُلُّهُ يَسْعَى إِلَيْهِ
الْوَثْنِيُّونَ، وَأَبُوكُمْ السَّمَاوِيُّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذَا كُلِّهِ.^{٣٣} فَاطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَهُ وَبِرَّه
تُزَادُوا هَذَا كُلَّهُ.^{٣٤} لَا يَهْتَمُّكُمْ أَمْرُ الْغَدِّ، فَالْغَدُّ يَهْتَمُّ بِنَفْسِهِ. وَلِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْعَنَاءِ مَا يَكْفِيهِ.

١.٢- الشرح

بالرَّغم من أن إنجيل اليوم هو نشيدٌ رائعٌ حول العناية الإلهية، فقد كان دائمًا مصدرَ تساؤلٍ إن كان مدعاةً للبطالة وعدم العمل. بالطبع، لم يقصد يسوع في كلامه الخمول والنوم، إنما الفكرة الأساسية تدور حول الدعوة لعدم الاهتمام (يعود الفعل «اهتم» ست مرات في هذا المقطع) بالشؤون الأرضية المادية التي من شأنها إبعادنا عن طلب ملكوت الله والاستسلام البنوي المليء بالثقة للآب السماوي.

القسم الأول من النص (٢٥-٣٠) يُعطي الفكرة الرئيسة للموضوع التي هي عدم الإفراط بالاهتمام بالطعام واللباس. كان تأمين الطعام عمل الرجال الأساسي من خلال زراعة الحقول والحصاد وبناء الأهرام. أما تأمين اللباس فهو عمل النساء الأساسي في المنزل إذ كنَّ يجهذن في الغزل والخياطة. فيسوع يقول إن كان الأب يهتم بطعام طيور السماء ولباس زنايق الحقل، فكم بالأحرى سيهتم بأبنائه بني البشر؟

يتحدث القسم الثاني (٣١-٣٣) عن هدف الحياة الذي يجب أن يُوجَّه كل مسلك للإنسان. فالهدف الأساسي هو طلب ملكوت الله وبره. إن عنوان عظة الجبل هو قانون الملكوت. أما الاهتمام بأمور الأرض فهو موضوع إيماني بامتياز، إذ إن الذين يسعون لهذه الأمور هم الوثنيون غير المؤمنين. فلقد عرفنا أن الوثنيين (٦: ٣٢) يُسلمون على إخوانهم وخدمهم (٥: ٤٧)، ويكثرون من الكلام عبثًا في صلاتهم (٦: ٧-٨). لذلك على المؤمنين الابتعاد عن أعمال الوثنيين وتوجيه مسلكهم نحو الارتباط الحياتي الفعلي بالله الآب؛ فهو يؤمن كل ما يحتاجونه من ضروريات مادية وروحية لخلاصهم.

أما القسم الأخير (٦: ٣٤) فيُعطي الأساس المصيري الذي على التلميذ اعتماده، والذي هو الاهتمام باليوم الحاضر وليس في الغد. كان الخوف من المستقبل يُشكل أساس الاهتمامات الحياتية للإنسان. وإن عدنا إلى شعب الصحراء لوجدنا أنه كان عليه تجميع المن لكفاف يومه، أما إذا حاول الإبقاء منه للغد فكان يستيقظ ويجده مهترًا؛ وهكذا تعلم شعب الصحراء أن يجمع من المن ما يكفيه ليومه (خر ١٦: ٤ و ١٦-٢١). وهذا ما يُريده يسوع من تلاميذه.

٢.٢ - التأوين

يَدْعُونَا يَسُوعَ لِلثِقَةِ بِاللَّهِ كَأَبٍ يَعْتَنِي بِأَبْنَائِهِ. فَعَلَيْنَا أَنْ نَعِيشَ بِاسْتِسْلَامٍ دَائِمٍ لِإِرَادَتِهِ الْأَبْوِيَّةِ. فَقَدْ عَلَّمَنَا فِي الْأَبَانَا أَنْ نَقُولَ: «أَعْطِنَا خُبْرَنَا كَفَافَ يَوْمِنَا»، وَهَذَا هُوَ الدُّورُ الْأَسَاسِيُّ لِلأَبِ فِي الْعَائِلَةِ: تَأْمِينُ الْقُوَّةِ الْيَوْمِيِّ لِلأَبْنَاءِ. فَمَا عَلَى هَؤُلَاءِ إِلَّا الثَّقَةُ بِهِ.

لِيُكْنَ مَسْلَكُنَا بَعِيدًا عَمَّا يَفْعَلُهُ الْوَثْنِيُّونَ مِنْ بَحْثٍ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَادِيَّةِ. عَلَى التَّلْمِيذِ أَنْ يَطْلُبَ أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللَّهِ أَيَّ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْكَنْزِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْحَيَاةِ، وَأَنْ يُتِمَّمَ الْبِرَّ أَيَّ إِرَادَةَ الْآبِ فِي عَيْشِ شَرْعَةِ الْمَلَكُوتِ وَوَصَايَاهُ. هَذَا لَا يَعْنِي أَنْ نَعِيشَ مَكْتُونِي الْيَدَيْنِ، بَلْ عَلَيْنَا أَنْ نُسَاعِدَ الْآخَرِينَ بِمَا نَمْلِكُهُ مِنْ مَادِيَاتٍ إِذْ إِنَّ هَذِهِ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا سَيِّئًا عِنْدَمَا نَتَقَاسَمُهَا مَعَ الْآخَرِينَ.

وَبِطَرِيقَةٍ حِكْمِيَّةٍ يَطْلُبُ يَسُوعُ إِلَيْنَا أَلَّا نَهْتَمَّ فِي أَمْرِ الْغَدِّ بَلْ بِالْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ مِنَ الْعَنَاءِ مَا يَكْفِيهِ. فَالْإِنْسَانُ يُخَطِّطُ مِنْ أَجْلِ ضَمَانِ شَيْخُوخَتِهِ، وَتَأْمِينِ حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ أَوْلَادِهِ؛ يَعْمَلُ وَيَكْدُّ مِنْ أَجْلِ غَدِّ مُبْهَمٍ وَغَيْرِ مَعْرُوفٍ، مَلِيءٍ بِالْمُفَاجَأَتِ. أَمَّا يَسُوعُ فَيَدْعُونَا لِتَغْذِيَّةِ إِيمَانِنَا بِاللَّهِ بِطَرِيقَةٍ يَوْمِيَّةٍ دَائِمَةٍ وَأَنْ نُوَدِّعَ الْمُسْتَقْبَلَ بَيْنَ أَيْدِي الْآبِ.

خُلَاصَةُ الْقَوْلِ، يَدْعُونَا إِجْنِيلُ الْيَوْمِ إِلَى «إِطْمِئْنَانٍ مُلْتَزِمٍ»، أَيَّ إِلَى سُلُوكٍ مُطَابِقٍ لِلْمَلَكُوتِ وَبِرِّهِ (أَيَّ أَعْمَالٍ الْمَحَبَّةِ تَجَاهَ اللَّهِ وَتَجَاهَ أَخِينَا الْإِنْسَانَ)، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، يُحَرِّرُنَا مِنَ التَّفَكِيرِ أَنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْمَلَ كُلَّ شَيْءٍ وَحَدْنَا وَكَأَنَّنا مَتْرُوكُونَ دُونَ أَبِي يَهْتَمُّ بِنَا.

٣ - التَّعْلِيمُ اللَّاهُوتِيُّ وَالرُّوحِيُّ: اللَّهُ الْآبُ

«نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاحِدٍ آبٍ، ضَابِطِ الْكُلِّ، خَالِقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...». أَنْ تَكُونَ مَسِيحِيًّا يَعْنِي أَنْ تَجْرُوَ عَلَى الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ أَبٌ. فَأَنْتَ لَا يَكْفِيكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِوُجُودِهِ - فَحَتَّى الْأَشْرَارُ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ. أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ أَبًا يَعْنِي أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّهُ يُحِبُّكَ، يَهْتَمُّ لِأَمْرِكَ، يَعْتَنِي بِكَ عِنَايَةَ الْآبِ بِأَوْلَادِهِ، بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ عِنَايَةَ الْآبِ الْكَامِلِ بِأَوْلَادِهِ، فَبَعْضُ الْآبَاءِ لِلْأَسْفِ لَا يَتَصَرَّفُونَ بِحَسَبِ رُوحِ الْأَبُوَّةِ. أَمَّا اللَّهُ فَهُوَ الصُّورَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلأَبِ الْمُحِبِّ. وَأَنْ تُؤْمِنَ أَنَّهُ أَبٌ لَكَ أَنْتَ، وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ. فَهُوَ أَرْسَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، يَسُوعَ الْمَسِيحَ، لِكِي يُشْرِكَنَا بِبُنُوَّتِهِ. هُوَ ابْنُ اللَّهِ بِحَسَبِ الطَّبِيعَةِ، صَارَ وَاحِدًا مِنَّا، إِنْسَانًا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِهِ أَبْنَاءً بِالتَّبَنِيِّ.

هو ضابط الكل، أي إنه قدير على كل شيء، «لأنه لا شيء مستحيل عند الله». وهذه الحقيقة تتفق عليها الكثير من الأديان. لكننا في المسيحية نضيف أن القدرة الإلهية، مثل سلطانه، هي قبل كل شيء استعداد للخدمة. قال يسوع عن نفسه «إن ابن الإنسان ما جاء ليخدم بل ليخدم، ويبدل نفسه فداءً عن الكثيرين». لذلك إن الله يضبط كل شيء بمعنى أنه يعمل لخلاص كل الناس. لما تكلم يسوع عن أنه الراعي الصالح الذي يسهر على الخراف ويبدل نفسه في سبيلها، قال أيضًا أن «لا أحد يمكنه أن يخطف من يد الأب شيئًا». الله بتدبيره الخلاصي لا يترك الأمور تفلت من يده، بل هو يسعى ليخلص الجميع، ولذلك لم يضمن حتى بابنه لأجلنا، لتكون لنا الحياة به.

هو خالق السماء والأرض. يقول بولس الرسول إن الله الذي لم يخل علينا بابنه كيف لا يهب لنا معه كل شيء؟ نؤمن أن الله خلق الإنسان وخلق لأجله كل ما في الوجود. وليس الخلق فعلًا من الماضي، كأن الله أنهى عمله وهو الآن يستريح من تعب، بل إن الخلق فعل مستمر، كما يعتني الأب بأولاده، إذ يقدم لهم الطعام واللباس، ويربيهم ويرافقهم. تؤمن الكنيسة أيضًا بما نسميه العناية الإلهية، وهي لا تعني أن الله يكتب التاريخ مسبقًا، ويتحكم بقرارات الناس وظروف الحياة. فالحرية أمر يتعلق بكرامة الإنسان وحقوقه، والله يسهر على شفاء الإنسان من كل أنواع العبودية، لكي يحرر الحرية فيه من كل القيود ويمكنه حينها أن يختار الله، ومجبه. فحتى الإيمان تركه الله لاختيار الإنسان ولم يرغب أحدًا به. يترم الله قرارات الإنسان ولو أنه يلهمه ويدعوه ويساعده ليختار الأفضل. وعنايته تقضي بأن يرافق الإنسان مهما ابتعد، أو مهما قست الظروف عليه. الحياة البشرية هشة وهي معرضة للألم وللموت. لم يخلق الله قانون الطبيعة ليغيره بتدخلاته اليومية، لكنه حاضر إلى جانب خليقته، يمشي معها في كل الظروف ليخلصها. حتى في الموت لا يغيب الله بل يأتي ليقيم الإنسان ويعطيه كل الحياة، الحياة الأبدية.

٤ - للقراءة والتأمل: قراءة من كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية (عدد ٢٣٩)

حول الأب

إذا دُعِيَ اللهُ بِاسْمِ «أَبٍ»، فَلُغَةُ الْإِيمَانِ تَدُلُّ بِنَوْعِ خَاصٍ عَلَى وَجْهَيْنِ: عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِكُلِّ سُلْطَةٍ عُلْيَا، وَأَنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ جُودَةٌ وَعِنَايَةٌ مُجَبَّةٌ لِجَمِيعِ أَبْنَائِهِ. حَنَانُ الْقُرْبَى هَذَا فِي اللَّهِ يُمَكِّنُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ أَيْضًا بِصُورَةِ الْأُمُومَةِ الَّتِي تَدُلُّ دَلَالَةً أَوْفَى عَلَى الْمَلَاذِمَةِ فِي اللَّهِ، عَلَى الْعَلَاقَةِ الْحَمِيمَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَخَلِيقَتِهِ. وَهَكَذَا فَلُغَةُ الْإِيمَانِ تَسْتَقِي مِنْ تَجْرِبَةِ الْوَالِدِينَ الْبَشَرِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ، عَلَى وَجْهِ مَا، أَوَّلُ الْمَثَلِينَ لِلَّهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ. وَلَكِنْ، هَذِهِ التَّجْرِبَةُ تَقُولُ أَيْضًا إِنَّ الْوَالِدِينَ الْبَشَرِيِّينَ غَيْرَ مَعْصُومِينَ عَنِ الْخَطَأِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ يُشَوِّهُونَ صَفْحَةَ الْأُبُوءِ وَالْأُمُومَةِ. فَمَنْ الْمُوَافِقُ التَّذَكِيرُ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ التَّمْيِيزِ الْبَشَرِيِّ لِلْجِنْسَيْنِ؛ فَهُوَ لَيْسَ رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً، إِنَّهُ اللَّهُ. إِنَّهُ أَيْضًا فَوْقَ الْأُبُوءِ وَالْأُمُومَةِ (مز ٢٧: ١٠) الْبَشَرِيِّينَ، فِي حِينِ كَوْنِهِ الْمَصْدَرِ وَالْمَقْيَاسِ: مَا مِنْ أَحَدٍ يُعَادِلُ اللَّهَ فِي الْأُبُوءِ.